قصص قصيرة

نجيب محفوظ

الصعود إلى القمر

تمّ الهدم وبقيت الأنقاض. تجلت أرض البيت القديم مساحة شبه مربعة في الفضاء خاليةً من أي معنى وبلا رموز. وقلت للمهندس وهو أيضاً صديقي:

- أنظر كم هي صغيرة.

فقال وهو يتأملها متفكراً:

- كان فيها الكفاية لإيواء أسرة ما شاء الله كبيرة.

و استغرق في تأملاته ثم استطرد:

- لا جدوى اقتصادية من بناء مسكنٍ أو عمارة صغيرة..

- قلت لك إنني لا أفكر في ذلك.

- لكن ما تفكر فيه خيالٌ خارق، إليك مشروعاً طريفاً ومفيداً، أن يُبنى مشرباً لبيع العصائر و الحلوى، وسوف يكون تحته في هذا المكان الأثري، وألف من يتقدّم لاستئجاره إذا عُرض للإيجار في الوقت القريب.

فابتسمت قائلاً:

- فكرةٌ طيبةٌ ولكنني لم أقصدك إلا لتنفيذ ما في رأسي.

- إنه خيالٌ أشبه باللعب

فقلت بإصرارٍ:

- أريد أن أعيد البيت القديم كما كان أول مرةٍ دون أدنى تغيير حاذفاً الزمن من الوجود.

وخلوت إليه في مكتبه وأصغى إليّ بعنايةٍ ويده لا تكفّ عن الرسم والتخطيط. ودار نقاشٌ مراتٍ فعندما وصفت له المدخل والسلّم قال:

- أسلوبٌ فجٌّ. ويصدم القادم بوجوده دون أي تمهيدٍ، دعني...

فقاطعته بإصرارٍ:

- ما أريد إلاّ أن يرجع البيت إلى أصله..

وفي لحظةٍ أخرى قال:

- المسكن لن يزيد عن حجرتين أكبرهما صغيرة..
- أنا عارف.
- وتضيع نصف المساحة لبناء حمامٍ يتّسع لخزانٍ لتطهير الزهر و الورد، وبناء فرنٍ بلديٍّ، أيّ زهرٍ وورودٍ وخبزٍ. !!
- هذا ما أريد، ولا تنسَ السطح، فيه حجرةٌ صغيرة صيفيةٌ، وحجراتٌ لتربية الكتاكيت والأرانب.

وضحك صديقي طويلاً ولكن يده لم تكفّ عن التخطيط.إنه يعلم جيداً أني لا أفكّر في الاستثمار.وكان مرجوّي أن أقيم استراحةً شعبيةً لبناتها الذكريات والأحلام، وتنفع مهرباً من هموم الحياة وضغوطها، وعندما يتمّ تأثيثه وتزيينه من محالِّ خان الخليلي سيكون تحفةً، ولكن بمعنى آخر غير ما قصده صديقي المهندس من بناء المشرب وإعداده للسيّاح والأهالي. ولعله أساء الظن. .حذّرني قائلاً:

- ستكون في قلب حيٍّ عريقٍ فحذار من تجاوز التقاليد .

فضحكت وقلت له:

- لو فكرت في شيءٍ مما تعني لوجدت سبيلي دون حاجةٍ إلى هدمٍ وبناء !

وتّم بناء البيت أو إعادة بنائه على ما اتفقنا عليه وكنت أتابع خطوات البناء الأولى ثم انقطعت عنه لأستمتع برؤية شكله الجديد وكأنها مفاجأةٌ سعيدة. وقال لي المهندس:

- تمّ كل شيءٍ كما تريد فأرجو ألا تندم..

وذهبت معه لإلقاء نظرةٍ أخيرة والتسلّم. وعندما أقبلت من أقصى الطريق تراءت المشربيّتان كما كانتا تترائيان في الزمن القديم. وكعينين ترمقان دعتاني للدخول، قام البيت بين البيوت القديمة على ناحيتيه التي بقيت على حالها دون أيّ تغييرٍ

خارجي، أما سكّانها القدامى - جيران الزمان الأول- فقد تلاشوا في غياهب المدينة ولم يتردد لأحدٍ منهم ذكرٌ إلا في صفحة الوفيات، وجعل قلبي يخفق. ورأيت المطرقة معلقةً بالباب فرأيت الأيدي العزيزة تقبض عليها. وقال المهندس كالمعتذر:

- كان عليّ أن أتخذ الاستعدادات لإدخال المياه والكهرباء.

فقلت له:

- في نيّتي أن استعمل المصباح الغازي..

- ستكون جاهزةً إذا احتجت إليها حتى تفيق من الخيال.

ولكنني أمعنت في الخيال وأنا أرتقي في السلّم العالي. وحال بلوغي الطابق المعدّ جُذبت إلى الوراء البعيد بشدّة. غاب عنّي صوت المهندس، كدت أنساه تماماً. ها هو الفرن. لكن أين حرارة الدفء واللهب والمجلس السعيد؟ وتقت إلى عبق الخبز. وها هو الحمام بمنوره المزركش وخزانه العريض والحوض المفعم بالزهر والورد. وها هي أنابيب التقطير تكاد تسيل بالرائحة الذكية، وجلست أراقب اليدين في نشاطهما العذب وأستمع إلى التلاوة. واندفعت أجرى في الدهليز بين الحجرتين تطوّقني الأصوات المحذّرة. واختلط التهديد بالضحكات العالية، واعترضنا الذي يضع على وجهه قناعاً من الكرتون رُسمت عليه صورة الشيطان، وجاء صوتٌ معاتباً: «لا ترعبه فالرعب لا يزول»، و صعدتُ إلى السطح فهالني أن أجد الحجرة الصيفية خاليةً من غطاء اللبلاب والياسمين وأنّ أرض السطح خاليةٌ من السلّم الخشبي وحبال الغسيل، و جذبني صياح الديك إلى حجرة الدجاج فهرعت إليها، و فرددتُ جلبابي وأمسكتُ بطرفه لأجمع فيه البيض.

و صحت فيمن يرافقني: «انظر» وأشرت إلى لون المساء الهابط على الحي من خلف القباب والمآذن. وطلع البدر في خيلاءٍ من وراء البيوت العتيقة فتطلّعت إليه بشغفٍ. عند ذاك رفعت فوق الكتف وهمس لي الصوت الحنون: «خذه إن قدرت»، فمددت يدي بمنتهى الحب و الأمل إلى البدر الساطع. !! ..

الطاحونة

كانوا ثلاثةً قيل أنهم خرجوا إلى الدنيا في يومٍ واحد . وحديث الأعمار يبوح بأسراره في حارتنا عند الحوار بين الأمهات حتى بلغوا السادسة. عند ذاك حُجزت البنت لتصبح خفيةً وراء الجدران واستمر الصديقان في اللعب والتذكّر. أما رزق فيتذكرها كلما احتاجوا إلى ثالث في لعبةٍ من الألعاب، وأما عبده فحتماً منذ تلك المبكرة كان يشعر بها حبيبةً للقلب على نحوٍ ما . ومنذ تلك السنّ المبكرة أيضاً أدرك أن عليه أن ينتظر عشر سنوات قبل أن يحقّق أمله المشروع.

وكان عبده من الذين يملكون، أما رزق فممن لا يملكون. وتزاملا في الكتّاب كما تزاملا في اللعب. وانقطع رزق عن التعليم بحكم فقره وواصله عبده حتى نال الابتدائية. ومنذ ذلك الزمن البعيد ورزق يتشكّل في وجدان عبده مثالاً فائقاً في القوة والجرأة والمهارة فاحترمه وأُعجب به وتبعة رغم فارق الغنى والفقر.

ولما مات والد عبده حلّ الفتى محل أبيه في مطحن البن الذي ورثه. وكان الأب قد درّبه، كما أن العمّال القدامى أخلصوا له أيما إخلاصٍ، ولكنه سرعان ما ضمّ صديقه رزق إلى المطحن كمعاونٍ له، وكان كل ما حصّله كلٌ منهما في التعليم كافياً له في عمله.

وتجلّت ألمعية رزق في متابعة العمل من شرائه البن أخضر إلى تحميصه وطحنه وتعبئته وتوزيعه.

وقال لأسرته مفسراً قراره بتعيين رزق:

- أنا لا أجد الطمأنينة إلاّ معه.

ذلك حقٌ.لم يتخلَّ عن خدمته قط. يدفع أيّ أذى للصبية. يُسارع إلى نجدته كلما احتاج إلى نجدة. يسعفه بالرأي والمشورة.

ولما ضمّه إلى المحل قال له:

- كن في العمل ما كنته في الحارة، عيني و أذني و يدي..

وفي وقتٍ قصيرٍ استحق أن يُلقّب بالوكيل. إنه الرقيب بين العمال، الدائب على رعاية الطاحونة، وأنشط من قام بتوزيع البن في الدكاكين والمقاهي. يا له من طاقةٍ لا تخمد. وأصبح هو لا يدرى كبيرةً أو صغيرةً من محلة إلا عن طريقة.بالمقارنة أصبح هو

لا شيء و الآخر كل شيء.

وكان ارتياحه لذلك أضعاف ضيقه به لما طُبع عليه من كسلٍ وحب الحياة اليسيرة والميل إلى الاستمتاع بالسهر كل ليلةٍ في المقهى أو الغرزة. وكان العملاء يقصدون رزق لعقد الصفقات وكأنه مالك كل شيءٍ. ولاحظ خال عبده ذلك وهو في غايةٍ من الاستياء ولكن الشاب قال له:

- بكلمةٍ واحدةٍ مني يتغير كل شيءٍ، أريد أن تجرى الأمور على ما تجرى عليه، وأنا يا خالي أحبّ المال ولا أحب العمل، ورزق أمينٌ، وهو هدية ربنا إليّ..

ومضت الأمور في طريقها المرسوم حتى قال عبده لرزق يوماً:

- آن لي أن أفكّر بالزواج قبل أن يسرقنا الوقت.

ولم يبدُ على رزق أنه فوجئ وسأله:

- هل فاتحت أحداً في الموضوع؟

- أنت أول واحدٍ أفاتحه فيما يهمّني..

- أحسنت، فالطريق المعتاد إلى الزواج هو أردأ الطرق، فدعني أتحرّى بأسلوبي الخاص والله يهدينا سواء السبيل..

هكذا سلّمه شئون قلبه ضمن اختصاصاته، ولم يكن هو رأى ظريفة طيلة السنين إلا مراتٍ معدودة، ولكنه لم يحب من جنس النساء سواها، غير أنه قال كالمعترض:

- أسرتها طيّبة وحسنة السمعة ولا حاجة بنا إلى التحريات.

- هذا كلام الناس الطيبين ولكننا لن نخسر بالسؤال شيئاً..

وانتظر عبده وهو يزداد قلقاً وتوتراً، ويتساءل في حنقٍ:

- متى تنتهي تلك التحريات المشئومة.

والتقت عيناه بعيني صاحبه إذ هما في المقهى فقرأ فيهما ما أثار خواطره وسأله:

- ماذا وراءك ؟

فقال بحزنٍ شديد:

- ليس خيراً

فهتف:

- يا خبر أسود،ماذا قلت ؟

- هي الحقيقة للأسف..

- لكن ظريفة ملاكٌ.

- إنها ليست ملاكاً

فغمغم بعد ترددٍ:

- أنا أريد البنت

فقال الآخر بادي الامتعاض:

- أنت حرٌ.

وانطوى على نفسه يفكر ويفكر. ويتردد بين الإقدام والإحجام، وضاعف من تعاسته أن رزق اعتكف في بيته لمرضٍ طارىءٍ. وذات أصيلٍ وهو منفردٌ بنفسه في المطحن ترامت إلى أذنه زغرودةٌ. وجاءه عاملٌ ليخبره بأن رزق كتب على ظريفة في حفلٍ خاص ونفرٌ من أهله.

وثار عبده ثورةً جعلته يبدو بين عمّاله كالمجنون حقيقةً لا مجازاً

وزاره قريب لرزق يحمل إليه اعتذاره وقوله أنه فعل ما فعل لينقذه من شرٍ كبيرٍ كان حتماً سيقع فيه. وضاعف الاعتذار من جنونه وأعلن طرده من المطحن وتوعّده بشرٍ من ذلك.

ولكن الذي حدث غير ذلك. وقال لي شيخ الحارة -وهو راوي قصة عبده ورزق وظريفة- أن عبده عاد مع الأيام إلى رشده. وغرق في عمله لا يدرى ماذا يفعل فاقتنع بأنه لا غنى عن رزق. وعفا عنه وأعاده إلى مركزه السابق.

والأعجب من ذلك كلّه أنه فاجأنا ذات يومٍ بالزواج من أم ظريفة !

العشق في الظلام

عندما يغلق باب المقهى لا يبقى ساهراً فوق أرض الحارة إلا الخفير. لتفقّد أبواب الدكاكين، ويذهب ويجيء مابين الميدان وممر القرافة سائراً في ظلام دامسٍ متلمساً طريقه بغريزته المكتسبة من العمل ومعلّقاً بندقيته بمنكبه وبين حينٍ وآخر يطلق نذيره الحلق الذي يشقّ الظلمة.

أُطلق عليه منذ بدء خدمته: «أبو الهول» بما يرمز له الاسم في الذاكرة الشعبية من الجلال والرهبة، الواقع أنه ذو طولٍ مؤثّر وعرضٍ لا يتناسب مع ذلك الطول، أما شاربه فيقف عليه الصقر، وأمّا رأسه فصغيرٌ وقلبه طيبٌ لا يتوافق مع أغراض وظيفته، والحق أنه مضى يهزل ويرقّ وتتجمّع في عينيه سحابة حزنٍ، وتساءلت القلّة التي تراه وهو يبدأ عمله الليلي عن السّر. وتجرّأ أحدهم فقال له:

– لستَ على ما يرام يا خفير بندق.

فأجاب بغموضٍ قائلاً:

– هي الدنيا يا معلّم.

إنه يعاشر الظلام، ولا يعرف من أهل الحارة إلا الراجعين قبيل الفجر من الحشّاشين والسكّيرين والخبّاصين، ولعلّه لا تصل إلى مسمعيه في صمت الليل إلا الأنّات الشاكية، وقيل أنه سيهزل ويهزل حتى تعجز الأعين عن رؤيته.

ولكن الأنّات الشاكية لم تكن الأصوات الوحيدة التي تزحم أذنيه. هناك الصوت الذي يتسلل من نافذة بدروم البيت القائم أمام السبيل.

أسمعه أنين الحب وأنغامه. كل ليلةٍ عقب عودة النجار من سهرته، يترنّح ويدندن ثم يهبط إلى مسكنه، وبعد فترةٍ وجيزة تتسلّل الأنغام من منافذ النافذة، كل ما استطاع أن يعرفه أن البدروم مسكن للنجار وامرأته ست بطّه، و لكنه لم يرها أبداً. إنها تقضى شؤونها في غرفتها. عرفها من صوتها آخر الليل، ولم يكن من أهل الحارة ولكنه عشق الصوت، وهام به هياماً حتى

نبض في قلبه. وتردّد في أنفاسه. يسمعه ليلةً بعد أخرى ويتشرّبه ساعةً بعد أخرى ويخلق من ترنيماته وتهويماته صورةً جامعةً لمحاسن نساء الريف والمدن، يناجيه في سهرته الطويلة ويستغيث به في وحدته، وتجسّد له مرات فحاوره ودعاه وقال له لا يعرف الألم الدفين إلاّ خالقه ولا يغيظه شيءٌ كما يغيظه دندنة النجار وهو عائدٌ مترنحاً. وخطر له أنه لو أعياه السطول ليلةً فسقطَ لحمَلَهُ إلى الداخل ليرى ست بطه.

ورنّ صوته في القبو مرةً و هو يغني:

«باسمع نغم الليل عشق الحبايب هدني الحيل»

وأعجبه صدى صوته داخل القبو فأعاد الغناء وفاض به الحنين فتساءل:

- وإيش بعد الغناء يا بندق؟؟

وجاء صوتٌ من وراء باب الحصن الأثري:

- ما بعد الغناء إلا العمل..

فارتعد متذكّراً ما يقوله أهل الحارة عن سكّان القبو. ولكنه تشجّع ضاغطاً بذراعه على بندقيته وسأل بلهجة ميري:

- من أنت؟. ..كيف دخلت الحصن؟

فأجاب بصوتٍ باسمٍ:

– أنا شيطانٌ يا خفير بندق، ولولا الشيطان ما كان الإنسان.

وسرى الصوت في كيانه بقوةٍ فلم يشكّ أنه بحضرة شيطانٍ حقيقي. حاول أن يتلو سورةً و لكن رأسه أُفرغت من محفوظاتها القليلة، وسأله مستسلماً:

- ماذا تريد؟

- ماذا تريد أنت؟؟

- ما أريد إلاّ أداء واجبي.

- أنت كذابٌ.

وترامت إليه دندنة النجار وهو راجعٌ فخفق قلبه وقال الصوت من وراء الباب المغلق:

- أعطني بندقيتك...

لم يذعن ولم يرفض ولكنه شعر بالبندقية تُنزع من حولٍ منكبة. وفجأةً دوّت طلقةٌ نارية فمزّقت مخالبها ستار الليل، نام ثوانٍ فحلم ثمّ صحى. ولمّا صحى رأى شفافية الضياء الباكر تهبط في مركبةٍ سماوية ورأى لمّةً تحيط بجثةٍ يتدفّق الدم من فيها وانكبّت فوق الجثة امرأةٌ وهي تصرخ وتبكي وتندب أبا العيال وبدت عنه حركةٌ فاتجهت إليه الأبصار وأكثر من صوتٍ سأل:

- من قتل الرجل يا خفير بندق؟؟

فتراجع حتى استند إلى شرفة السبيل وهو يحدّق فيهم

- لابد أنك رأيت كل شيءٍ. .فمن قتل الرجل؟

فأجاب بذهولٍ:

- قتله الشيطان.!..

وكان يرى ست بطة لأول مرةٍ، ولآخر مرة.

الهتاف

ذات صباحٍ رجع أبو عبده إلى حارته. عرفه كثيرون رغم طلاء الأبهة، رغم العباءة والعمامة والعصا والمركوب.

- يا للغرابة يا أبو عبده. ماذا أرجعك؟

عاش في الركن الذي كان يقيم فيه بين أسرته وتلفّتَ حوله في حيرةٍ. و اتّجه نحو دكان شيخ الحارة الذي كان يراقبة بامتعاضٍ وحيّاه وسأله عن أهله.

وسأله شيخ الحارة بخشونةٍ:

- ما معنى هذه العودة؟

فقال أبو عبده الذي لم يكن يتوقّع استقبالاً أفضل:

- جئت لزيارة الأهل.

فقال الرجل بغلظةٍ:

- مات من مات ورحل من رحل هرباً من كلام الناس.

ثم بعد فترة صمتٍ مشحونٍ باللّوم:

- وأنت أدرى بالحكاية وأصلها.

فقال أبو عبده بلهجةٍ لم تخلُ من تحدٍّ:

- ها أنا أعود يا شيخ حارتنا، و سوف تراني سيّداً يعيش بين السادة.

فقال شيخ الحارة بضيقٍ:

- اختر لنفسك ما يحلو، أما أنا فلا يهمّني إلاّ الأمن العام.

وسرى الخبر في الحارة مثيراً أكبر قدرٍ من الاشمئزاز.

وبأكبر سرعة ممكنة راحت خربةٌ تتحول إلى سراي لينزل به ذلك الرجل الذي غادر الحارة إلى أطراف الحي وجمع ثروةً ضخمةً من أحطّ السبل وأحملها للعار حتى صار مضغةً للأفواه ومرّغ اسم حارتة في التراب.

و سأل إمام الزاوية شيخ الحارة:

- ألم يجد في الدنيا الواسعة مكاناً لمسكنه بعيداً عن الحارة؟

فقال شيخ الحارة:

- إنه يؤمن بأن نقوده تستطيع أن تفعل المستحيل.

وتلهّف أبو عبده مع إعداد السراي ليبدأ ممارسة سيادته.

ولكن طوال مدة العمل لم يعنِ أحدٌ بالنظر إليه. كان يشعر بالاحتقار كظلّه والكراهية مع أنفاسه.

و تساءل في توجس:

- ترى هل أُقيم لنفسي سجناً وأنا لا أدري؟

ونصحه شيخ الحارة قائلاً:

- إنه مشروعٌ فاشلٌ.

فقال بإصرار:

- بل سوف تلمس نجاحه وتنوّه مع الآخرين بأعمالي الخيرية.

فضحك شيخ الحارة رغماً عنه، فقال أبو عبده:

- وسأستعين بك في مشروعي الخيري.

فرمقه بريبةٍ فقال:

- أنت تعرف متبولي الأعمى. كنت مقترضاً منه خمسة قروش حين غادرت الحارة فانصحه بأن يذكّرني بها..

فأدرك شيخ الحارة مقصده، لم يتحمّس و لم يرفض. وقال لإمام الزاوية:

- إذا أراد أن يكفّر عن منكره فليكفّر..

فقال الإمام:

– إن الأعمال بالنيّات و هو ذو نيّةٍ سوداء دائماً .

غير أن سعي شيخ الحارة باءَ بالإخفاق و قال لأبو عبده:

– متبولي يرفض المطالبة بدينه القديم.

وانزعج أبو عبده. لكنه لم ييأس. صمّم على أن يجعل من واقعة ردّ الدين لمتبولي حادثاً يسيل له لعاب الفقراء في الحارة فيكسب جبهتهم بضربةٍ واحدة.

وانتظر صابراً كظيماً يوم السوق. وارتدى فاخر الثياب إيماناً منه بولع أهل حارته بالمظاهر. وذهب بقدمين ثابتتين يشقّ طريقه في الزحام إلى حيث يقرفص عم متبولي أمام مقطفه.

قال بصوتٍ جهير:

– أحيي صديق العهد القديم.

فرفع متبولي إليه عينيه الضعيفتين وتحرّكت شفتاه دون أن يصدر عنهما صوت. وانتبه إليه أناسٌ فتابعوا ما سيحدث باهتمامٍ ودون أن يفارق الفتور وجوههم. وهمس إمام الزاوية في أذن شيخ الحارة:

– أدعو الله أن يمرّ اليوم على خيرٍ.

أمّا أبو عبده فقال:

– لك دينٌ في عنقي وجئتك الآن لأسدّده.

وأخرج من عبّه رزمة أوراقٍ مالية لا تُرى في الحارة إلا كل حينٍ ومينٍ ووضعها بين يدي الرجل لضيق مقطفه. وساد صمتٌ ثقيلٌ، وتركّزت على الرزمة الأبصار. حتى همس شيخ الحارة في أذن الإمام:

– اذكر هذه اللحظة التعسة فقد تكون بدء تاريخٍ طويلٍ من الفساد في حارتنا الطيبة.

وابتسم أبو عبده في إغراء، ولا ترامى الزمن دون حركة تحولت الابتسامة إلى توسّل، ولكن متبولي أزاح النقود بمقطفه نحو صاحبها وصاح بصوتٍ سمعه الجميع:

- خذ نقودك يا قذر.

عند ذلك هتف الجميع بصوتٍ واحد:

- الله أكبر. و ليحيا الجدعان. ...

حديقة الورد

حدث ذلك في زمنٍ مضى. ومما يُذكر أن شيخ حارةٍ حكاه لي و نحن جلوسٌ في حديقة الورد. فقد عثر على حمزة قنديل بعد اختفاء طويلٍ وهو جثةٌ هامدةٌ في الخلاء.

وُجِد مطعوناً في عنقه بآلةٍ حادة. مخضّب الجلباب والعباءة بالدم المتجمّد، عمامته مطروحةٌ على مبعدةً يسيرةٍ من الجثة، أما ساعته ونقوده فلم تمسّ، مما يقطع بأن الجريمة لم تُرتكب من أجل السرقة. وتولّت الجهات الرسمية الفحص والتحقيق، وانفجر الخبر في الحارة وذاع بسرعة النار ونشارة الخشب.

وترامى الصوات من بيته وجاوبته الجارات بالمشاركة الواجبة وتبادل الناس النظرات، وساد جوٌ من التوتر والرهبة، ولم تخلُ بعض السرائر من ارتياحٍ خفيٍ، وأيضاً مما يشبه الشعور بالذنب، وأفصح عن شيءٍ من ذلك عم دكروري بيّاع اللبن حين همس لإمام الزاوية:

- القتل أكبر مما يتوقعه أحد، رغم عناده وثقل دمه!

فقال الإمام:

- يفعل الله ما يشاء.

وسألت النيابة عن أعدائه، فكشف السؤال عن جو متحفظٍ غامضٍ. أرملته قالت أنها لا تعرف شيئاً عن علاقاته في الخارج.ولم يشهد أحدٌ بوجود عداوةٍ بين القتيل وبين أحدٍ من أهل حارته. بل لم يدلِ أحدٌ بشهادةٍ نافعة. ونظر المأمور إلى شيخ الحارة متسائلاً فقال:

- كل ما لاحظته أنه لم يكن له أصدقاء!

ولّما سُئِل عن أسباب ذلك قال:

- كانوا يستثقلون دمه ولم أهتمّ بمعرفة السبب.

ودلّت التحريات على أن الخلاء كان طريق ذهابه إلى عمله في التربيعة وعودته منه. ولم يكن يصحبه أحدٌ في ذهابه أو إيابه.

وأما السؤال التقليدي عمّا إذا كانوا يشكّون في أحدٍ أجابوا بالنفي القاطع، ولم يكن أحدٌ يصدّق أحداً، ولكن هكذا جرت الأمور. ولكن لماذا لم يكن لحمزة قنديل صديقٌ في الحارة؟..

وهو ما يرجّح بأنها كانت تضمر له العداء؟.قال شيخ الحارة:

- أنه كان ممن سبقوا إلى شيءٍ من التعليم، فكان يجلس في المقهى يحدّث الناس عن عجائب الدنيا التي يطّلع عليها في الصحف فيثير الدهشة ويجذب الانتباه.هكذا صار قمر كل مجلسٍ يكون فيه، واحتلَّ مركزاً لا يراه الناس لائقاً إلا برجال الحكومة أو الفتوّات، فحنقوا عليه وتابعوه بقلوبٍ مليئةٍ بالسخط والحسد. وبلغ الأمر نهايته من التوتر عندما تكلّم ذات يومٍ عن القرافة كلاماً عُدّ خارجاً عن حدود العقل. وذلك عندما قال في أثناء حديثٍ له:

- انظروا إلى القرافة، إنها تقع في أجمل موضعٍ في حيّنا!

وتساءل الناس عمّا يريد فقال:

- تصوّروا شمالها حيّاً سكنياً، وجنوبها حديقة!

وغضب الناس غضباً لم يغضبوه من قبل وانهالوا عليه لوماً وتعنيفاً، وذكّروه بحرمة الأموات وواجب الولاء لهم، وكان بيومى زلط على رأس الهائجين فحذّره من العودة إلى حديث القرافة وصرخ قائلاً:

- نحن نعيش في بيوتنا سنين معدودة ونلبث في قبورنا إلى يوم يبعثون.

وتساءل قنديل:

- والناس أليس من حقهم أيضاً.

ولكن زلط قاطعه هائجاً:

- حرمة الأموات من حرمة الدين.

بذلك أفتى زلط الذي لم يعرف كلمةً واحدةً عن الدين. ولم تكد المعركة تهدأ بعض الشيء حتى حمل شيخ الحارة في ذلك الوقت قراراً من المحافظة ينذر بإزالة القرافة بعد مهلةٍ معينةٍ داعياً الناس لإقامة مقابر جديدة في عمق الخلاء.

لم يكن ثمّة علاقة بين كلام قنديل والقرار، و لكن البعض ظنّ ــ و بعض الظن إثم ــ والأكثرية قالت: إن قنديل أهون من أن يؤثّر في الحكومة، و لكنة شؤمٌ على أي حال، ورغم ذلك حمّله الجميع تبعة ما حدث. وهو من ناحيته لم يخفِ سروره بالقرار. فضاعف من غيظ الناس وحنقهم، وتجمّعوا أمام شيخ الحارة بين صياح الرجال وعويل النسوة وطالبوه بأن يبلّغ الحكام بأن قرار الحكومة باطلٌ وحرامٌ وضد الدين ضد كرامة الأموات. وقال لهم شيخ الحارة أنه لا يقلّ عنهم غيرةً على كرامة الأموات. ولكنهم سيُنتقلون من مكانٍ إلى مكان مع المحافظة الكاملة على الحرمة والكرامة، فقالوا في إصرارٍ: إن هذا يعني أن اللعنة ستحيق بالحارة ومن فيها. وصارحهم الرجل بأن قرار الحكومة نهائي وأن الأَولى بهم أن يتأهّبوا للتنفيذ. وانصرف عنهم وزلط يقول بصوتٍ كالنهيق:

- ما سمعنا عن شيءٍ مثل ذلك منذ عهد الكفار!!

واختلط السخط على الحكومة بالسخط على قنديل فصار سخطاً واحداً. ورجع بيومي زلط من سهرةٍ ذات ليلة مخترقاً طريق المقابر. وعند السبيل الصغير برز له هيكلٌ عظمي متلفعاً بكفنٍ، فتسمّر زلط وطار ما في دماغه من دماغه.

قال الهيكل:

- الويل لمن ينسى موتاه أو يتهاون في أثمن ما يملك وهو القبر.

ورجع زلط إلى الحارة وقد امتلئ بهمسات الموت. والحق أنه لم يخفَ على أحدٍ أنه قاتل قنديل. ولم يبحْ بشرّه أحدٌ خوفاً وانحيازاً .وقيل: أن تلك الحقيقة ترامت إلى مأمور القسم، ولكنه كان أيضاً ضد نقل القرافة المدفون فيها أجداده، وقُيّدت القضية ضد مجهولٍ و راح دم قنديل هدراً.

ختم شيخ الحارة حديثه معي بنغمةٍ آسفة ونحن جلوسٌ في حديقة الورد التي كانت ذات يومٍ قرافة حيّنا العتيق.

ذاكرة الجيران

في ليلة وقفة رمضان لعامٍ من الأعوام البعيدة الماضية قامت خناقة مالها إلا النبي بين أسرتي برغوث وعميرة.

وكالمألوف في تلك الظروف اضطراب استقرار الحارة فأُغلقت الدكاكين وصوّتت النساء وزاطت الصبية، ووقف إمام الزاوية وهو يصيح بأعلى صوته:

- وحّدوا الله. ..ما هكذا يُستقبل الشهر الفضيل.

ولكن لم يتمكّن أهل الخير من التخليص بين الأسرتين قبل أن يُصاب منهما رجلان مهمّان هما: محمود البرغوتي والناصح عميرة. وساءت حالتهما وتدهورت ففارقا الحياة في يومين متعاقبين، و هلّ رمضان في جوٍ من الوجوم والأسى وقال الناس أن هذا لا يُرضى الله ولا خلقه، وأنه يجب وضع حدٍ لتلك العداوة المتوارثة، خاصةً بعد أن اندفع تيارها في مجرى جديد لم يعد يقنع بالجرحى ولكنه سجّل أول ضحيتين له من الموتى وقالوا أنه على صاحب نفوذٍ أن يتدخّل وأن يبذل ما يملك من قوةٍ لإقرار الصلح بين المتخاصمين منذ الزمن السحيق. وبناءً على بلاغة إمام الزاوية وضغوط الأهالي قرّر شيخ الحارة أن يتحرك. دعا إلى دكانه كبيري الأسرتين: علي برغوث وخليل عميرة، وقدّم لهما القهوة و طلب منهما أن يقرءا الفاتحة ويصلّيا على النبي.

- لنطرد الشيطان عن مجلسنا.

وقلّب عينيه بين الرجلين ثم قال:

- ما بينكما قديمٌ، وضحاياه من الجرحى لا يحصون على المدى الطويل، ولكن بالأمس القريب مات رجلان ولا كل الرجال، والموت يدفع إلى الموت والمسألة لم تعد محتملة والجميع يريدون لها أن تنتهي، فلنحتكم إلى العقل والدين لنصفّي الحساب القديم و نبدأ حياةً جديدة.

فتوارى كلٌ منهما وراء صمته وعكست الأعين صلابةً و ضيقاً، فقال الشيخ:

- لنطرح أسباب الخصام أمامنا، و إن لزمت ديّة دُفعت أو كانت خطيئة كُفّر عنها . لا داء بلا علاج. و لابدّ للشر من نهاية.

ولّما أنس منها رفضاً وعناداً راح يصارحهما بأن أسرتيهما صارتا تسلية الماجنين من أهل حارتنا، يضربون بهما المثل فيقولون لبرغوث وعميرة كما يقال عن القط والفأر. يتقابل الكهلان الوقوران منكم فيتبادلان الشتائم، تتراءى المرأتان فيدور الردح والتشليق، أما لقاء الشباب فالعنف والدم. ومن عجب أنني لم أعثر على شخصٍ في حارتنا يعرف لخصومتكما سبباً، أكان زواجاً أو طلاقاً أو صفقةً خاسرةً أو جريمةً؟

الظاهر أن السبب ذهب في مخزن التاريخ.و بقيت العداوة وحدها .

ولكنكما كبيرا الأسرتين و لابدّ أنكما تعرفان السرّ، فلنطرح السبب بيننا، وإن لزمت ديّة دُفعت، أو كانت خطيئة كُفّر عنها .

ظلّ جدار الصمت قائماً بينهما وبينه فهدهد غيظه وتساءل:

- يا معلم علي. ماذا تريد لترضى، وأنت يا معلم خليل. ماذا تريد لترضى؟

وبإزاء الصمت المستمر هتف: «يا صبر أيوب » ..ثم وجّه خطابه لهما:

- اكشفا لي عن سبب الخصام.

ثم بعد فترةٍ يسيرةٍ قال برجاءٍ:

- حلّفتكما بالحسين أن تتكلما .

لكنهما لم ينبسا بكلمةٍ، وفي الوقت نفسه قلقت نظرة حيرةٍ في أعينهما فاستردّ نبرته الحازمة وقال:

- لابدّ من الكلام، وإلا دعوت الشرطة والنيابة للتدخل في الشؤون التي تعوّدنا أن نعالجها بأنفسنا .

ولّما قرأ الإعياء في وجهيهما فضّ الاجتماع وهو يتمتم:

- لنا عودة.

ومرّت بشيخ الحارة فترة بحثٍ وتقصٍ فسأل الكثيرون من أفراد الأسرتين عن سبب الخصام ولكنه لم يظفر بجوابٍ، بل وضح له أنهم يجهلون السبب تماماً، وكما قال لإمام الزاوية فإنهم يذكرون العداوة جيداً ولكنهم لا يعرفون علة لها .وركبه التصميم فقرر

أن يزور الدفتر خانة ثم دعا إلى دكانه كبيري الأسرتين: علي برغوث وخليل عميرة. و قال لهما بثقةٍ هذه المرة:

- لا أحد يعرف السبب سواكما، وإن كنتما تجهلانه كالآخرين فإني على أتمّ الاستعداد لكشفه لكما..

فسأله المعلم علي بجدّة:

- من أين لك تلك المعرفة؟

فأجاب بهدوء الواثق:

- فتّشت عن ذلك في دفاتر شيوخ الحارة المعاصرين للأجداد وقرأت في دفتر أحدهما. ووقع نزاعٌ فاضحٌ بين برغوث وعميرة.

عند ذاك صرخ المعلم خليل:

- كفى.

فسكت شيخ الحارة قليلاً ثم قال:

- لم يكن الأمر فاضحاً بهذه الدرجة في الزمن القديم ولكن جرى الزمن وتغيّرت القيم فأصبح سبب النزاع مما يوجب الستر، فأجمع المتخاصمون على إغفاله حتى نسي و بقيت الخصومة وحدها تتوارثها الأجيال.

وابتسم في وجهيهما ليخفّف من وقع حديثه وقال برقةٍ:

- معذرةً. إن هدفي الوحيد هو الكفّ عن الأذى والعودة إلى حياة الجيران.

صدى النسيان

كانوا يحلفون باليوم الذي شهد مولده الجديد، و السعة التي وقع فيها تغيره و انقلابة الحاسمان، غادر عنبر بيته عند الأصيل وصار مزهواً في عباءته السوداء مرسلاً من خطاه الثقيلة نذر الرهبة والخوف. وفيما هو يمرّ أما كشك الحنفي العمومية توقف كأن مجهولاً اعترضه أو صدّه. أحنى رأسه دقيقتين ثم رفعها فطالع الناس بوجهٍ جديد. انحلّت عقد من عينيه فحل محله هدوءٌ حائر. وراح يقلّب ناظريه في الناس والأشياء كأنه يبحث عن شيءٍ أو لا يدري شيئاً. وتحرّك في الحارة تحركا عشوائياً في هدوءٍ وذهولٍ لم يُرَ معهما من قبل.

وكان الناس يحيّونه فلا يرد، ويلقون إليه أهازيج الملق فلا يتأثّر. حدث شيءٌ خطيرٌ ولا شكّ ولكن ما هو؟

وتجمّع الناس بعيداً عنه وهم على أشدِّ حالٍ من القلق والتوقّع، وجاء فيمن جاء إمام الزاوية وشيخ الحارة. وتساءل شيخ الحارة.

- ماذا يجرى في حارتنا ؟

فأجاب الإمام:

- أمر الله ولكل أمرٍ حكمة.

فقال أحد أعوان عنبر:

- إنه عفريت النسيان، إن مسّ أحداً نسي الناس ونسي نفسه.

تمنى الناس أن يصدق. وأن يذوب عنبر في النسيان إلى الأبد. وراقبوه بحذرٍ وهو يهيم هادئاً ذاهلاً. حتى صار هدوؤه مألوفاً. وانخفضت حرارة الخوف عامةً. واطمأن من كان يتوقع أذى. وتجوّل عنبر في أنحاء الحي كلما حلا له ذلك.

وكثيراً ما ضلّ سبيله فيُرجعه أحد أعوانه وهو لا يعرفه. وذاع في كل مكانٍ أن عنبر مسّه عفريت النسيان، وأن شخصاً جديداً طيباً حلّ فيه مكان الآخر. واعتبر ذلك من عجائب النوادر كما عُدَّ منّةً لملك الوهاب. وعاد إلى الحارة بعض الذين

طردهم سخطه منها في عهد بطشه وقوّته، وحتى«المظية» التي هربت من شغبه وسوء خلقه رجعت إلى حارتها، فرجع معها السرور والطرب وتردّدت من جديدٍ الأنغام العذبة التي طال حنين الناس إليها ورأى عنبر خصومه السابقين فلم يعرف أحداً منهم وحتى المظية لم توقظ وعيه أو تحرك ساكنة. ارتاحت الحارة جميعاً إلا أعوانه الذين تنكّر لهم الزمان، وجعل شيخ الحارة يحذّرهم قائلاً:

- الزمان تغيّر ولن أسمح بأيّ انحراف.

وكانوا أضعف من أن يتحدّوا أهل الحارة فتعلّقت آمالهم بأن يعود صاحبهم إلى وعيه فجاءةً كما فقده فجاءةً أو يقع ما ليس في الحسبان.

وعقب صلاة الفجر قال إمام الزاوية لشيخ الحارة:

- لأول مرة يتردّد عنبر على الزاوية.

فتساءل شيخ الحارة بدهشة:

- أهو ميلٌ مفاجئٌ للهداية؟

- لعلّه!!

فقال الشيخ مشجعاً:

- املأ قلبه بالدين كيلا يجد فرغاً للشرّ إذا استردّ وعيه يوماً.

وعُرف أن المرأة التي اكتشفت داءه تسعى لدى أهل العلم بالنجوم والسحر والعفاريت ليشفوه من المسّ، وأقلق ذلك الناس وطالبوها بأن تكفّ عن سعيها، وأنذروها بالشرّ إذا لم ترجع، وبدا أنهم يرفضون العودة للهوان مرةً أخرى. وعاد الإمام يقول لشيخ الحارة:

- أتباع الرجل السابقون يتبعونه في الهداية.

فقال الشيخ راضياً:

- أخبارٌ طيبةٌ حقاً!

لم يُسمع عن شيءٍ مثل هذا منذ السلف الصالح.

وبشّر شيخ الحارة الناس بذلك فرحّب بالأخبار من رحّب، وأعلن أناسٌ بأنهم على تمام الاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضدّ أيّ تسلّطٍ.

ولم يتغير مظهر عنبر في جملته، وذهب وجاء كرجلٍ من عباد الله الطيبين. لم يؤذِ أحداً بفعلٍ أو قولٍ حتى بنظرةٍ وآمن كثيرون بأنه لن يعود إلى أصله أبداً. وظلّ أناسٌ على حذرٍ يتشاورون، ثم توارى عن أعين الناس هو وأعوانه فترةً غير قصيرةٍ حتى تضاربت الأقوال وثارت الخواطر.

وفي يوم السوق وقف الإمام يؤذّن لصلاة الظهر فمضى الناس في هدوءٍ نحو الزاوية وإذا برجلٍ يصيح:

- انظروا

فاتّجهت الأبصار إلى حيث يُشير. فرأوا عنبر ورجاله قادمين، تغيّر المنظر جملةً وتفصيلاً. تقدّمهم عنبر وتبعوه كالزمان الأول في الجلابيب والعمائم قابضين على نبابيتهم. وارتدّ وجه عنبر إلى الصورة القديمة بالنظرة الصارمة والعُقد البارزة والعضلات المشدودة. هل رجعنا إلى أيام الطغيان والإتاوات والسيطرة؟

وساد الصمت حتى لم يعد يُسمع إلا وقع أقدامهم الثقيلة. وعند الزاوية وقفوا وضرب عنبر الأرض بنبّوته وصاح بصوتٍ كالرعد «الله أكبر» فردّد الرجال وراءه في هتافٍ يزلزل القلوب «الله أكبر»!!!

على لوز

شباب البنت سفرجل فترات متعاقبة من الزيجات الباهرة. زفة وقناديل، ورياحين ومزامير وطبل ورقص، وكمائن للغدر تسيل عندها الدماء وترتطم النبابيت، ثم ليلة زفاف مفعمة بالعربدة، والتأوهات. تكرّر ذلك خمس مرات استنفدت شباب سفرجل كله، انحدرت بها إلى طلائع الشيب والكرب، خمسة فتوات من عمالقة الحارة، هيّأوا لها _ كلٌ على طريقته_ حياة عزٍ وجاهٍ وسلطنة. وانتهوا جميعاً. كلٌ في موعده. يسقط الرجل قتيلاً، أمام فتوة آخر أو حملة من الشرطة أو في السجن، ويُنهب بيته وتجد سفرجل نفسها شبه عارية وعلى الحديدة، تبحث عن مأوى حتى يهبّ لنجدتها أحد أهل التقوى والكرم.

وعقب دفن الزوج الخمسة زارت جامع الإمام ووقفت أمام ضريحه، وباحت بمكنون قلبها المكلوم: «أعاهد الله أمام ضريحك ألا أتزوج من فتوة أبداً بعد اليوم»

وهمست لنفسها: «أعوذ بالله من الفتونة والعنطزة والدم المسفوك». ولم يكن الضيق بالحياة المضطربة وحده هو ما دفعها إلى ذلك التعهّد، ولكنها كانت قد فقدت الشباب والنضارة، وأخذ الشيب يطلّ من مفرقها وذؤاباتها، فلم يبقَ لها من جمالها القديم إلا مسحة توارت في استحياء تحت قناع الكدر والهموم، ولم يعد يعدُها الغد إلا بالمزيد من الشيخوخة والفقر. فعزمت عزمةً صادقةً على مواجهة الحياة بإصرارٍ واستسلامٍ معاً رافضةً أيّ إحسانٍ أوصدقة. وكان من ضمن ما أتقنته صنع حلوى «على لوز».. فعملت على إعداد صينية كبيرة منها كل يومٍ تسرح بها في الحي في جولة ثم تجلس بقيّة يومها عند طرف سلّم السبيل حيث يجلس عند الطرف الآخر شحاذ الحارة الضرير، واختارت حجرةً في بدرومٍ قديم مسكناً لها. هكذا رضيت بحياة غاية في البساطة والقناعة أملاً في الاستقرار والطمأنينة.

وبخلاف الجميع ظلّت أم شاور الخاطبة تؤمن بأن حظّ سفرجل لم يقلْ كلمته الأخيرة بعد، وتبادلت معها الحديث يوماً فشرّقت وغرّبت، ثم إذا بها تسألها:

- عندي فتوّة من حارةٍ أخرى معروفٌ بيحب العتاقي!

فهتفت سفرجل بجدّةٍ:

– أعوذ بالله.

وغابت عنها مدةً دون أن تقطع الأمل. ورجعت لتقول لها:

– لن أتركك، لديّ هذه المرة شيءٌ مناسب.

فراحت سفرجل تنادي على «على لوز»، وهي تلحظ أم شاور بحذرٍ حتى أفصحت هذه عمّا لديها فقالت:

– شيّال الحمول!

فقالت سفرجل بعتابٍ:

– قلت لك أعوذ بالله من الفتوّات وسيرتهم!

– شيّال الحمول أبعد ما يكون عن الفتونة.

وكانت شهرة شيال الحمول قد ذاعت لطاقته الخارقة على تحمّل الضرب فاستعمله بعض الفتوّات درعاً يحمي ظهره من الضربات الغادرة. وقالت أم شاور مؤكّدةً ذلك:

– لا قدرة له على القتال، أو هو كما وصفوه جسم فيلٍ وقلب عصفور، فهو عزّ الطلب

فقالت سفرجل بحزمٍ:

– من أجل علاقته بالفتوّات والمعارك أقول حدُّ الله بيني وبينه

وذهبت أم شاور يائسةً تاركةً إياها في دوّامةٍ من الانفعال، وإذا بصوتٍ يتسلل إليها قائلاً:

– أحسنت. ابعدي عن الشرّ وغني له..

فنظرت نحو الشحّاذ الضرير بدهشةٍ وهتفت:

– تسترق السمع!

واقترب منها الرجل، ومدّ لها يده بقطعة نقودٍ قائلاً:

– هاتي ما قُسم من على لوز.

لم يكن ذلك بأول حوارٍ يدور بينهما ولكنه كان أول حوارٍ ذي معنى. وكان الضرير معلَماً ثابتاً من معالم حياتها. وهو رجلٌ يلفت النظر بعماه وصبره وقوة جسده، وبما ينشده من مقاطع لمدائح نبوية تقرّباً من المحسنين، ورمقته وهو يمضغ الحلوى باسماً في ارتياحٍ و تمتم:

– حلوة من يدٍ جميلة

فقالت سفرجل ساخرةً:

– شهادة زور.

– بل إنني أرى بأذني.

فسألته دون مناسبةٍ ظاهرة:

– ولماذا تشحذ وأنت رجلٌ قويٌ؟؟

فقال محتجاً:

– أشحذ ..! أعوذ بالله. .ما أنا إلا مطربٌ يسترزق بإنشاد المدائح النبوية والإلهية.

وتنحنح ثم أنشد بصوته الجهير:

– شربنا الحب كأساً بعد كأس

فما نفد الشراب وما رويت

فضحكت من قلبها أول ضحكةٍ صافيةٍ منذ عهدٍ بعيد.

واهتمت بمراقبته في الأيام التالية فأدهشها أن تلاحظ أن دخله يفوق دخلها أضعافاً مضاعفةً، ولم تشكّ في أنه يكنز النقود حول بطنه فيما ظنّته كرشاً كبيرة. وأصبحا يتبادلان التحيّات والكلام.

وبتعلل بشراء «على لوز» ليبثّ في الاتصال مودةً وحرارة..

حتى تشجعت يوماً وقالت بإغراءٍ:

– غيّر عملك. هذا أفضل.

ولكنه دافع عن عمله بحماسٍ كالعادة فقالت:

- فتح دكانٍ للحلوى أفضل.

فتفكّر قليلاً ثم تساءل بمكرٍ:

- ألا يحتاج ذلك إلى شريكٍ؟

فقالت ضاحكةً:

- لديّ شريكٌ جاهزٌ، فاعزم وتوكل على الله.

مدد

عُرف عبدين يوماً بحكايته التي جرت على كل لسان، ورث دكان العطارة الصغيرة عن أبيه، فيسّرت له رزقاً موفوراً، وعاش مع أمه بعد زواج أخوته في بيتهم القائم أمام الزاوية وتميّز بين شباب الحارة برشاقة القوام ووداعة القسمات، ودماثة الخلق وحُسن العلاقات مع المعارف والأصدقاء، أما أول ما اشتهر به من الطبائع وألصقها بعقله وقلبه فهو إيمانه بالعرّافين وولعه بزيارة أضرحة الأولياء، ولم يكن يخطو خطوةً حتى يستخبر أهل الذكر، ويستعطف القدر، كان لعبدين جيران، صاروا لطول الجيرة وحسن السيرة وكأنهم من صميم الأهل، وكانت لهم بنتٌ تُدعى شمائل ولدت بعد عبدين بعامين، فعرفها منذ كانا يلعبان في الحارة أو تجمعهما زفّة الفوانيس في رمضان، وعُرفت شمائل بإشراق الوجه وحُسن التكوين، وجمال الأدب، وأتقنت منذ فترةٍ شؤون البيت، وما يلزم ربّة البيت من ضروراتٍ وكماليات، وحتى الخط كانت تفكه، فتكتب اسمها كما كانت تكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

وكان من المتّفق عليه والمعروف في الحارة أن شمائل هي عروس عبدين، وأن عبدين هو عريس شمائل، وفضلاً عن ذلك فقد ربط الحب بينهما، ومهّدت البسمات لمعجزة اليوم الموعود .

ولمّا اقترب الوقت المناسب تحرّك طبع الفتى الدفين، وقال:

- كيف لا يفوتني سؤال الشيخ لدى كل حركةٍ عاديةٍ أو تافهةٍ ولا أقصده في مصير حياتي.

وأخذ بعضه وذهب إلى شيخه العارف بالله الشنواني بحجرته بأم الغلام، وطرح سؤاله والآخر يقبض على يده ويشمّ عرقه، ثم قال له الشيخ:

- اذهب الآن إلى حارتك وانتظر عند مدخلها، وسلّم أمرك لأول بنتٍ تخرج منها، هي التي تحمل لك سعادتك المقسومة لك في هذه الدنيا، ولن تحظى بخيرٍ إلاّ في الآخرة.

ورجع إلى حارته و هو في غايةٍ من التوقع والتوتر، وكان على شبه يقينٍ من البنت التي سيراها، ولكن أين تذهب شمائل في

ساعة الغروب؟ وكان سرحان الأعمى أول من خرج من الحارة، وتلاه غلامٌ يسوق الطوق ويغنى «على باب حارتنا حسن القهوجى»، واشتدّ قلق عبدين فقال في سرّه: «سلّمت إليك أمري يا رب العالمين»، وإذا بصوتٍ ينادي: «عال الجوافة» وظهرت عربة يدٍ فوقها هرمٌ من الجوافة تدفعها حليمة، ذُهل، لم يحوّل عينيه عنها، وضحكت هي لما رأته وقالت مداعبةً: «واقفٌ مثل غفير الدرك »، ومضت نحو الميدان، سار وهو يقول لنفسه:« يا رب لطفك و رحمتك»

أيعني الشيخ حقاً حليمة بنت أم حليمة بياعة المخلل و ابنة المرحوم أحمد المكارى؟ لا أحد في حارتنا يجهل حليمة، وهي أيضاً تتعامل مع الجميع، ولكنه كما تقول أمّها مفاخرةً: «رجلٌ بين الرجال»، رغم رشاقة عودها وثرائه. وكانت مقبولة الوجه وجذابةٌ أيضاً رغم قوة نظرتها النافذة، وخلا عبدين إلى نفسه يتفرغ للحيرة، ويذهب مع خياله و يجيء بين شمائل وحليمة، وشكا سرّه إلى صديقه الذهبي فقال له:

- أيّ وجهٍ للمقارنة بين شمائل وحليمة! وأنت عرفت شمائل من خلال الجيرة والمعاملة وشهادة المعارف والجيران، أما كلام الأولياء فليس منزّلاً من السماء.

ولكن إيمان عبدين بقول الولي كان فوق أي مناقشة.

وانتشرت رائحة الخبر رويداً رويداً، فأثارت الدهشة والضحك كما عثت الدموع في أعينٍ كثيرة، وحصل كلامٌ ونزاعٌ وصراع، ولكن عبدين صمد لكل معارضةٍ بقوة إيمانٍ لا يتزعزع، وفي ساعة العصرية، وقبل أن تتحرك حليمة بالعربة ذهب عبدين إلى حجرتها، بربع الزاوي وطلب يدها من أمها، وأخذ الخيال يتحوّل إلى حقيقة، وسمع حمودة في إحدى الليالي يقول في الغرزة على مسمعٍ من جميع المساطيل: «المجنونة الجشعة ما أحبت أحداً سواي ولكن أعمتها صورة دكان العطارة».

وذهبت العروس إلى الحمام لتزيل عن جسدها الممشوق عرق الأعوام وغبار الحارة وفلّت شعرها المسكون، فتبدّت في صورةٍ لامعةٍ وزُفّت إلى الفتى العطار فأقام معها في شقةٍ أما السيرجة، ودعا ربّه أن يهبه السعادة التي ضحّى في سبيلها بقلبه وبكل اعتبار.

وكانت أياماً صافية، وانغمس عبدين في هواه الجديد ليغطي على أصداء حبّه الأول ويدفن هواجسه وفقدت الحكاية جدّتها ودهشتها فلم يعد يتندر بها أحد، وكان يمارس الحياة ويلاحظها بانتباهٍ حتى لا يفوته سرٌ من أسرار السعادة، ومنذ بدأ

المعاشرة شعر بقوتها وصلابتها وبأنه يضعف أمام نظرتها النافذة. والحق أنه توقع أكثر مما كان ولكنه أقنع نفسه بأن السعادة الموعودة ليست هبةً بسيطة أو إحساساً سهلاً يجود بذاته منذ اللحظة الأولى، إنها حياةٌ عميقة ذات سراديب فلينتظر، أما حليمة فلم تنتظر، سرعان ما ضاقت بحياتها في البيت، ولم تعد تُخفي ضجرها، ولا تمرّدها على سجنها، وتحيّر عبدين أمام ظاهرةٍ غير مألوفةٍ في دنيا النساء .ولكنها قالت له بصراحةٍ وجرأةٍ:

– دعني أعمل فقد خُلقت لذلك.

وذهل عبدين، وأخرسه الذهول فاستطردت:

– لا يهمك كلام الناس، متى سكتوا عنّا ؟

وكانت تصرّ وتصمد وكان ينفعل ويتراجع، ولم تكن تهمّه الحوادث، باعتبارها مقدماتٍ لسعادةٍ لا مفرّ منها، ألم يقل الشيخ الشنواني كلمته؟

وشهدت الحارة حليمة وهي تشارك زوجها في دكانه ورجع الاتصال بينها وبين زبائنها القدامى، ورجع حمودة أيضاً بين الغمز واللمز، وكثُر اللغط والضوضاء حتى سأله صديقه الذهبي:

– أتعجبك هذه السعادة؟

ولكن عبدين بدا صامداً مؤمناً فقال له:

– الصبر طيب والنصر قريب.

ولكن حليمة اختفت فجأةً، استولت على ما اعتبرته حقّها من النقود المودعة في الدكان واختفت، وبعثت إليه رسولاً يعتذر إليه ويطلب الطلاق، كبّ كل شيءٍ على عبدين، وقوض الزلزال صبره فبكى، ولما رأى صديقه الذهبي مقبلاً تعانقا بحرارة، وفي أثناء العناق استردّ الكثير من روحه الضائعة، وقال لصديقه:

– سأطلقها في الحال.

فلم يخفِ صديقه فرحه، ونظر عبدين إليه طويلاً في فترة صمتٍ ثم قال:

– إنها ستجرّب حظها بعيداً ولكنها ستعود تائبة!

وتنهّد ثم قال لصديقه الذاهل:

- كلمة الشيخ الشنواني لا تكذب..

معركة الحصن القديم

عاد إلى الحارة في أول إجازةٍ بعد فترة غيابٍ غير قصيرةٍ وهمست امرأة «ذهب يوم الكشف بجلبابه، وها هو يعود بالبدلة الكاكي، ما أجمله في البدلة الكاكي». وحذاؤه الأسود الضخم لم يخفَ على أحدٍ ولا طربوشه الطويل. أجل نحِف ولكن عوده اشتدّ وصلُب. اكتست بشرته بسمرةٍ غميقةٍ من شمس الصحراء. وقال عجوزٌ سبق تجنيده:

– أمامه خمس سنوات سخرةٍ كسائر الجنود المساكين.

يوم دُعي للتجنيد كان من أيام الحارة الحزينة. هرعت أمّه إلى شيخ الحارة وقالت له في ضراعةٍ:

– نحن في عرضك.

فقال لها الرجل:

– قوانين الحكومة لا تُجدي معها الشفاعة.

وأوصاها أن تذهب به إلى رجلٍ مشهودٍ له بالمهارة فيضمن له عاهةً تعفيه من القبول يوم الكشف، ولكن الشاب رفض الفكرة وقال لأمه:

– أنه يفضّل خدمة الجيش خمس سنواتٍ عن عاهةٍ تلتصق به طوال الحياة.

هكذا قُبل جندياً بلا زغاريد.

ويوم المحمل احتفلت به الحارة كلها. احتّل الرجال قطّاعاً من الطريق فيما يلي حي الشوام، وتكأكأت النسوة فيما بين الحمام والجامع. وخفقت القلوب بالأفراح.

وعاد الشاب إلى حارته في الإجازة ليستمتع بشيءٍ من الحرية والراحة. وعزمت أمه على ألا تضنّ عليه بشيءٍ ولو باعت آخر أسورةٍ في معصمها. وقال لأمّه وهو يخلع ملابسه.

– حياة القشلاق فوق طاقة البشر.

فدعت له بالقوة والصبر ثم قالت متشكيةً بدورها :

- وحياتنا في الحارة أصبحت مثل حياة القشلاق وأسوأ، ألم تسمع بما حصل ؟

بلى قد سمع كلماتٍ متناثرة، ولكنه لم يدرك أبعاد الحكاية، فواصلت أمّه قائلةً:

- لم يكن ينقصنا إلا العفاريت، ألم يكن في الناس الكفاية ؟

الواقع أدرك الشاب أن الحارة تمرّ بمحنة. قدرٌ رهيبٌ حرّك الشرّ في قلوب ساكني الحصن الذي يوجد بابه المغلق تحت القبو على كل من انفردوا به ليلاً، وملؤوه رعباً فسقط منهم جرحى وهم يفرّون من الهول. استمع الجندي إلى حكايات الضحايا وعاين الجراح والكسور ثم قال بامتعاضٍ شديدٍ .

- ما يصحّ أن تعبث العفاريت بحارةٍ مؤمنةٍ.

فأيده جميع السامعين وقال صوتٌ:

- نحن في حاجةٍ إلى بطل.

فهزّ الحماس الشاب وقال:

- أنا لها !!

فثارت ضجةٌ وهتافٌ، وتحمّس كل شخصٍ باستثناء أمه فأسكره الحماس وصاح متحدياً :

- أنا لها!!

وانتظروا المغيب وقد تعلّقت به الآمال، وانزوت أمه تبكي، وهبط المساء ذلك اليوم في هالةٍ من التهاويل والأخيلة الخارقة.ووقف الجندي ممسكاً بعصا أهداها إليه فتوةٌ متقاعد . وتقدّم من القبو يشقّ طريقه في زحمة الخلق فعلت الضوضاء حتى غطّت على تحذيرات أمه الباكية. و في صوتٍ قوي واحدٍ صاحوا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

وفي ثباتٍ ظاهرٍ مرق الجندي من باب الحصن القديم. وأنصتوا بقلوبٍ راجفةٍ ودفنوا الهمسات في الصدور ومال شيخ الحارة نحو الأمام و سأله:

- كيف تنتهي المعركة؟

فأجاب الإمام:

- الله يؤتي النصر من يشاء.

وندت من الداخل حركاتٌ عنيفة ارتعدت لها القلوب ثم كان انفجارٌ، تبعه صوتٌ كالرعد، وانتشرت في جوف القبو أصوات دقٍ وكسرٍ وتمزّقٍ وزمجرة ودار همسٌ حارٌ مع الأنفاس المضطربة:

- الدقيقة بعامٍ كامل، لو انهزم الحق علينا لن نرحل عن الحارة. لولا حكمة ربنا ما أقدم الشاب على المعركة.

وساد الصمت فجأةً وفُتح باب الحصن مرةً أخرى فاقتحم صريره سكون الليل. وأمر شيخ الحارة بإشعال فوانيس الطوارئ فاشتعلت وتراءت على أضوائها الوجوه الشاحبة ولاح الجندي في الباب فهتف الناس بجنونٍ:

- الله الله.

وتقدم نحو الحارة يسير في مشيةٍ عسكرية فأوسعوا له وإذا بطابورٍ من الأشباح يتبعه بنفس المشية يسيرون أربعة أربعة، ذُهل الناس وهم يرون الطابور وهو يشغل سطح الحارة من القبو حتى مخرج الميدان. وتوقف الجندي فوقفوا وهم يتحركون محلّك سرِ. ظلوا يتحركون هكذا حتى لم يجد الناس مكاناً إلا لصق الجدران.

وألاف الناس الفرحة وأفاقوا من سكرتها، وحلّ محل ذلك تساؤلٌ ودهشةٌ وقشعريرة خوفٍ. وسأل رجلٌ شيخ الحارة:

- ألا ترى أمامك يا أعمى.! ..؟

وأصرّت الأم على إطلاق تحذيراتها حتى رميت بالجنون. ولم يعد يُسمع في الليل إلا وقع الأقدام الثقيل !!